

الدكتور إدورد سعيد ، "الاستشراق"

(نيويورك ، بانثيون ، 1978) ، 368 صفحة

Edward W. Said "ORIENTALISME"

(New York : Pantheon Books, 1978)

بقلم: الدكتور خليل سمعان

لما مؤلف الكتاب فانه يعرف موضوع كتابه بأنه الحلقة الأكاديمية ، التي تدرس فيها مواضيع شرقية ، يعمل ضمن نطاق تخصصها بحثة وكتاب متخصصون يعتبرون الشرق موضوع تخصصهم الجامعي . ويتابع المؤلف فيؤكد بأن الشرق هو نوى الحقيقة عالم يتألف من « حضارات وأمم تقطن المناطق الشرقية (من الكرة الأرضية) لهم من طرق المعيشة والعادات والتاريخ واقع هو اعظم بكثير من كل ما يمكن ان يوصفوا به في الغرب (ص 5) » ثم يشير الكاتب الى ان الحضارة والتاريخ لا يمكن ان يفهما او يدرسا علميا دون الرجوع الى التوى الكامنة فيهما والتعرف على حدود هذه التوى . فالعلاقة القائمة بين الغرب والشرق كانت ولا تزال علاقات قوى ، اي علاقة تحكم الغرب بالشرق واستعماره ، على مستوى درجات مختلفة ، وصفها بكل دقة الكاتب ك . م . باننيكار في كتابه :

K.M. Panikkar : Asia and Western Dominance.
London : George Allen and Unwin, 1959.

هذا ولقد استشرق الشرق لا لكونه اكتشف « شرقيا » من جميع النواحي الممكن اعتبارها كصورة طبيعية صحيحة له . لقد اكتشف الشرق من قبل الانسان الاوروبي في القرن التاسع عشر ، واستشرق لانه

« حدث العام الادبي . فتح في عالم النقد الرصين والمنهج العلمي الصحيح . كتاب وجبت قراءته على كل طالب وبحثة واستاذ متخصص وامريكي مثقف .

هذا بعض ما نقرأ ونسمع عن كتاب الزميل الدكتور إدورد سعيد ، استاذ الادب المقارن في جامعة كولومبيا في الاستشراق والمستشرقين ومدارسهم ودراساتهم ، الفث منها والسمين .

وهو يحتوي على مقدمة وثلاثة ابواب :

فالمقدمة هي في الواقع عرض منهجي متصل ، اراد المؤلف ان يكون للتارىء تعريفا جغرافيا وحضاريا لموضوع الاستشراق ، ميز فيه بين وجهتي نظر غربيين ، اولاهما تعود الى الفكر والعمل الاوروبي ، والثانية الى الفكر والعمل الامريكى في حقل الدراسات المشرقية . فبينما ينظر الفرنسي الى الشرق بوصفه المنطقة الجغرافية التي وصفها « شاتوبريان » « وثرغال » في رواياتهما ، نجد ان الامريكى انما ينظر الى ذات المنطقة ولكن بوصفها المنطقة الجغرافية الواقعة شرقي شبه القارة الهندية .

فرايمسكى وسواه من بناء صرح النقد الحديث .
ويختتم الكاتب مقدمته بتحديد موضوع بحثه تحديدا
منطقيا لا يقبل الكثير من الجدل .

هذا الكتاب القيم حافل بوقائع تاريخية وأدبية
حللها المؤلف ، مظهرا تزمّت الغرب ومستشرقيه ، نالقي
على أعمالهم أضواء تنير السبيل أمام الدارس ، وتبكنه
من تمييز الرخيص من أعمال الدعاية ، والظالم من
ترهات أعداء الحضارات غير الأوروبية ، كما تبكنه
من التعرف بأساليب الاستشراق ومنطلقاتها . والحق
يقال ان عرضا نقديا لكل ما جاء في هذا الكتاب القيم
من تحليل ونظريات واستنتاج لا يتسع له هذا المقام ،
وانه لا مناص للثقف العربى من اقتناء هذا الكتاب
ودراسه بكل تودة وثبات ، وقبل أن أبدا بعرض موجز
لخلفية هذا العمل النقدي العلمى اود ان أشير الى
محاولتين اعتبرهما صرختين في واد ، اولاهما مقال
تصير جدا نشر في مجلة « الآداب » البيروتية ،
السنة 22 ، العدد 6 ، حزيران 1974 ، بقلم الدكتور
ابراهيم ابو لغد ، شكاه فيه الكاتب من سيطرة
الصهاينة الأمريكيين على الدراسات العربية (ص 5-6)
والاخرى بحث قيم قدمه الدكتور هارتموت فاهندريخ
في مؤتمرات الدراسات العربية في غوتنغن ، ألمانيا الغربية
ونشر في سلسلة دراسات المجمع العلمى في غوتنغن ،
Akten des VII kongresses für arabistik und
islamwissenschaft.

Herausgegeben von Albert Dietrich.

ABHANDLUNGEN DER AKADEMIE DER
WISSENSCHAFTEN IN GÖTTINGEN.

Göttingen. Vandenhoeck & Ruprecht. 1976 —
Hartmut Fahndrich. « Historical perspective in
Nöldeke's Orientalische Skizzen (1892).
pp. 146-154

أشار فيه الى تزمّت شيخ المستشرقين الألمان في القرن
التاسع عشر ومطلع القرن العشرين « تيودور نولدكه » .
وانما أشير الى هذين العاملين الأدبيين لا لكونهما
مرجمين أو مصدرين من مراجع البحث ولكن لما يقتضيه
البحث العلمى من امانة تحقيق .

أما كتاب الدكتور أدورد سعيد فيمكن القول ،
وبكل اختصار ، بأنه عمل علمى يعرض آراء الاستشراق
في الشرق محلا ، ويفندها ناقدا ، ويستنتج منها خطأ
تقسيم المجتمع الانسانى وعادته وتقاليده الى
قسمين : غريبى وشرقى ، مشيرا الى ان هذا التقسيم

كان من الممكن تعريضه للكينونة والتصنيع كمال
شرقى . مثل هذا يستنتج من وصف الفرنسى
« فلوير » للسيدة « كوشوك هاتم » ، الغاتية المصرية
التي لم تتكلم قط ولم تعبر عن عواطفها ، أو وجودها ،
أو تاريخها ، بل تكلم عنها ومثلها « فلوير » نفسه .
و « فلوير » هذا كان اجنبيا ، غنيا بدرجة نسبية ، ونكرا .
وهذه المواصفات بالذات هي التي تشكل الواقع
التاريخى الذى مكن « فلوير » من امتلاك
« كوشوك هاتم » امتلاكا جسديا ، والتحدث باسمها
وشرح شرقيتها — (ص 6)

ويتابع الدكتور سعيد قائلا : انه لا يجب مطلقا
الفرض بان هيكل الدراسات الشرقية هو مجرد
أكاذيب وأوهام يمكن أن ندحض وينعدم وجودها
بمجرد بيان الحقائق عنها . فالمؤلف يعتقد ان الدراسات
الشرقية لها أهمية كبرى كدليل للسيطرة الأوروبية
— الاطلنطية على الشرق ، أهمية هي أكبر بكثير من
أهميتها كحقول دراسى أكاديمى . ان ما يجب ان يعرفه
الدارس ويتنبهه تنهما صحيحا هو تفاعل الدراسات
الشرقية في المجتمع الغربى وعلاقتها الوثيقة جدا
ببؤسائه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ،
وايضا قوة وجودها المهيبة . فمن تحصيل الحاصل
ان أية مجموعة من الإنكار التي يمكنها أن تحافظ على
وجودها دون تغيير ، لكونها غير قابلة للتطور والتحول
كمجموعة أحكام ومبادئ قابلة للتدريس في المعاهد
والناقشة في المؤتمرات العالمية ، وفي الكتب المستعملة
في تهيئة الدبلوماسيين والسياسيين ، اي عمل فكري
كهذا يبقى دون تغيير منذ عهد الفرنسى « رينان »
(حوالى 1840م) الى يومنا هذا ، وفي بلاد كالولايات
المتحدة الأمريكية ، هو في الواقع عمل مخيف رهيب ،
وأرهب بكثير من مجموعة أكاذيب وخرافات تستخدم
كأداة تثقيف وتاهيل موظفين . وعليه فان الاستشراق
ليس مجرد وهم أوروبى عن الشرق . أنه مجموعة
نظريات وأساليب ومبادئ وضعت منذ أجيال كثيرة
سلفت . لقد كلفت الكثير من المال ووظفت ثروات كبيرة
في استثمار الاستشراق لهدف استثمار الشرق .

هذا هو أذن هيكل الاستشراق أو دراسات
الشرق أو المشرق الذي يعالجه المؤلف شارحا نقائمه
ومساوئ استعماله الأكاديمى في الغرب . وكما سبق
ونكرت ، يستعمل الكاتب في بحثه وتحليله نظريات
نقدية حديثة ، ومنها اجتماعيا — اقتصاديا —
سياسيا — أدبيا — تاريخيا ، معتادا كثيرا على نظريات

وشمال افريقيا ليست المنطقة التي تشكل مركزا ثقافيا ذا قيمة أو أهمية ، وان ليس هنالك ما يدل على انها سوف تشكل مركزا ثقافيا في المستقبل القريب ولذا فان دراسة لغات هذه المنطقة لا يمكن ان تجدي نفعا على دارسيها بالنسبة للحضارة الانسانية الحديثة ... وتابع الدكتور « مرو برجر » يقول بان منطقة الشرق الاوسط « لا تشكل مركز قوة سياسية ، وان ليس هنالك ما يشير الى انها ستصبح قوة سياسية ذات أهمية » (كذا) ... هذه المعلومات الخاطئة عن الشرق والشرقيين لها اثرها في جميع مرافق الفكر الغربي . انها تنطلق من كتب التاريخ التي تدرس في ثانويات أمريكا حيث يتعلم الطالب ان الاسلام « أسسه تاجر عربي غنى اسمه محمد قال بانه نبي فتبعه قوم من العرب وغير العرب كان يقول لهم انهم انتخبوا من قبل السماء لحكم العالم » (كذا) ... واذا ، فان الاستشراق ومبته التعليمية يحلان قسما كبيرا من مسؤولية تخدير الخلق الغربي فلا يتاثر بتشريد شعب فلسطين ، ولا بمظالم شاه ايران لشعب ايران بل ينظر الى هذه المآسي وكأنها نتيجة طبيعية لعملية «تصنيع وتدين» الشرق والشرقيين .

على ان الكاتب لا يحكم على جميع المستشرقين بالظلم والجهل ، هنالك من المستشرقين من حصل على معرفة صحيحة بالشرق فوصفه وصفا موضوعيا لا بأس به بل هنالك من المستشرقين من ادى خدمات معترفا بها للعلم والمعرفة .

ويستخلص المؤلف من بحثه ان الدين الاسلامي المعروف في الغرب بالاسلام هو شيء والدول الشرقية شيء آخر . فكما أنه لا يجوز لنا كبحافة منصفين القول بان المسيحية مسؤولة عن مساويء حكم الجنرالات الشيليين لا يجوز ان نقول بان الاسلام هو مرآة مساويء ومصدر مآسي الشرق والشرقيين . فالاسلام ، وهو دين مساوي مقدس وهو مصدر الغداء الروحي للمسلمين . هؤلاء يعيشون في عالمنا هذا لا في « الاسلام » وعليه فان معرفة الاسلام والمسلمين تفرض على العارف معرفة العالم الذي يعيش ضمن نطاقه المسلم وغير المسلم ، فالمسلمون هم اعضاء في المجتمع الانساني كسواهم من المؤمنين بالاديان الاخرى . انهم اعضاء صالحون منتجون في المجتمع الانساني الذي يشكل الاسلام جزءا منه .

حيا الله الدكتور ادورد سعيد وامثاله من سفراء الحضارة العربية في الغرب .

هو من انتاج الفكر الغربي وتخطيطه للحط من قيم الانسان الشرقي وفلسفة وجوده ، وذلك كمقدمة لاستعمار الشرق من قبل الغرب الطموح الطماع . فالغرب يتحدث منذ قرون عديدة عن الصوفية الشرقية، والثراء الشرقي ، وحروشة الشرق ، وعقلية الشرق ، وانغماس الشرق في ملذاته المادية ، وما الى ذلك من ترهات كان لها الاثر الحاسم في تصور الغرب للشرق بانه منطقة غريبة ساحرة ، غير متدعنة ، ولكن غنية ، لا بأس من الاستيلاء على ثرواتها « وتدينها » فتصبح صورة مقزمة عن الغرب « المتحضر » . وطبيعي ان يكون للترتمت الديني الغربي اثر فعال في وضع الدين الاسلامي في وسط الدائرة ، وجعله موضوع تحليل ونقد عنيفين ، مما ادى الى الاستنتاج الخاطيء بان الدين الاسلامي مسؤول عن العقلية الشرقية ، والدروشة الشرقية الاستسلامية الخ . وسبب هذا التشويش الفكري هو ان الدين الاسلامي والحضارة العربية شكلا في القرون الوسطى خطرا كبيرا على دين الغرب وحضارته . هذا الدين الحنيف لم يخضع في يوم من الايام لسيطرة الغرب وعنصريته ، ولذلك ، أصبح في نظر المستشرقين مصدر قوة الحضارة العربية الشرقية وملهمها . من هذا المنطلق بدأ الغرب يدرس « الاسلام » دراسته التحليلية المعروفة بخصبها وسوء منهجها . ومن هنا استنتج الاستشراق ان طريق التعرف بشعوب الشرق لا تتم الا عن طريق التعرف « بالاسلام » . وكذلك السيطرة على المشرق : فقد قرر المستشرقون انها هي ايضا لا يمكن ان تتسم دون « الاستيلاء » على « الاسلام » .

ويفند الكاتب موقف الغرب المسيحي من الاسلام ونيبه تنقيدا يظهر بوضوح جهل الاستشراق وظلمه وعجزته . هذا الجهل هو الذي ادى بالاستشراق الى الاعتقاد بان على كاهله تقع مهمة « تدين » الاسلام والشرق المسلم . ويقول الكاتب ان كارل ماركس نفسه لم يكن معصوما عن الوقوع في خطأ نظريات الاستشراق هذه . كما يشير الكاتب الى ان الاستشراق ، وهو غير قابل للتطور والتحرر من ترتمته وعنصريته ، ما زال حتى في ايامنا هذه مصدرا للمعلومات الخاطئة عن الشرق والشرقيين . فهو يشير الى تقرير كتبه عام 1967 الدكتور « مرو برجر » ، استاذ العلوم الاجتماعية في جامعة برنستون الامريكية ، ورئيس جمعية الدراسات الشرقية وشمال افريقية في أمريكا وكندا ، يقول فيه بان منطقة الشرق الاوسط